تمهيد

الحمد لله تتأرّج بشذاها الإنسانية المؤدبة، وتموّج بنداها الروحانية المهذّبة، وتتروح بها النفوس المضطربة، وتراح إليها القلوب المعذّبة، إنها طاقة تمدّ بفوْحها أنفاس الأمل في الحياة، وباقة تجلّد بنفحها أسباب الرجاء في النجاة، ودوحة نتفيأ ظلالها وننتفع بثمارها، جذع تلك الدّوحة "محمد بن عبد الله"، وأفنانها صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

أما بعد

فقد لقي الإسلام في مسيرته صنوفاً من التحدّيات، بيد أن الإسلام تجلّت حيوية أجياله في قدرتها على مواجهة هذه التحديات، ومقابلتها بشجاعة وصبر، ونجح الشباب المسلم في تحويل هذه العقبات إلى معابر، يعبرون من خلالها إلى آفاق أوسع، حيث كان التّحدّي في أن يصل الإسلام إلى الآذان والعقول والقلوب، وأن يتحمل المسلمون مسئولية ذلك، فقد نالهم من الأذى البدني والاجتماعي، والاقتصادي، والفكري الكثير فهاجروا إلى الحبشة، وحصروا في شعب بني هاشم، ومع ذلك كله استطاعوا تكوين الجماعة المسلمة الناهضة بهذا الدين، وحملت أمانة تبليغه إلى الناس أجمعين.

وقد استطاعت تلك الجماعة الإسلامية أن تنمو داخلياً، وأن تكوّن ذاتها خارجياً، ومع هذه التحدّيات، وتلك الصّعاب استطاع النبي - صلى الله عليه وسلم- إقامة الدولة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة بعد هجرته إليها، وبني المسجد

النبوي؛ لترتفع كلمة الحق، وسترتفع بإذن الله إلى أن تقوم الساعة، ويقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة.

كما أن الإرهاب ظاهرة غريبة على جسم الأمة الإسلامية، بل ودخيلة على الإسلام وأهله، وما يحدث في هذه الآونة من إرهاب يتجلّى في الحوادث التي أُرْهِقَتْ فيها الأرواح البريئة، ورمّلت النساء، ويُتّم الأطفال دُونَما ذنب جَنوه، أو إثم اقترفوه، أو سيئة اجترحوها، كما هو جناية لا تغتفر على الاقتصاد الذي يجب على الجميع حراسته وحمايته، وأن يحمل كل مواطن على عاتقه إنماءه؛ لإسعاد الشعب المصري، وازدهاره حتى لا تمتد أيدينا إلى المساعدات الخارجية، وإن مدّت فإنما تكون بقدر وبحساب؛ كي يعيش هذا الشعب ويدخل في حلل السعادة، والازدهار والنمو والتقدم.

وبإذن الله سيتحقق الرخاء، والانتعاش والقضاء على هذه الظاهرة الغريبة، ولن ينالوا بإذن الله من هذا الشعب العظيم.

وقول أمير الشعراء "أحمد شوقي":-

الله أكبر إن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لا تذكر واكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئ القنديلا

والله الموفق والمعين

المؤلف

أ . د / على الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر – فرع جرجا – سوهاج

إن العالم كله الآن يموج بتيارات من الفتن، تقض مضجعه، وتؤرق أهله، وتجعلهم يعيشون في جو من الإضراب، والقلق النفسي، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وفقدوا نعمة من أجل النعم وأعظمها، وهي نعمة الأمن.

فلقد امتدح القرآن الكريم نعمة الأمن في أكثر من آية في القرآن الكريم، يقول الله -عزَّ وجلّ- : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:٦٧] ويقول الله -عزَّ وجلّ- أيضاً: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة قريش:٤].

وقال- تعالى-: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة الأنعام:٨١]، ويقول - سبحانه وتعالى-: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام:٨٢]، وقال - عز من قائل - : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة النحل:١١٢].

وقال - صلى الله عليه وسلم - : "من بات آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت إليه الدنيا بحذافيرها".

ولقد تفشت في هذا العصر الأنكر ظاهرة القتل على يد الجماعات الإرهابية، وابتليت جميع الدول بهذه الظاهرة، وهي من علامات الساعة الصغرى، كما أخبر بذلك المعصوم - صلى الله عليه وسلم - في قوله - عليه الصلاة والسلام :

"والذي نفسي بيده، ليأتينّ على الناس زمان لا يدرى القاتل فيما قتل، ولا المقتول فيما قُتل"(١)، وذلك أن الناس يقتل بعضهم بعضاً دونما هدف، كما أن في ذلك استخفاف بدماء الناس، وهو أيضاً من علامات الساعة الصغرى، قال - صلى الله عليه وسلم - : "بادروا بالأعمال ستاً: إمارة السفهاء، وكثر الشّرط، وبيع الحكم، واستخفافاً بالدم، وقطيعة الرحم، ونَشْواً يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليغنيهم وإن كان أقلهم فقهاً"(٢).

وظاهرة الإرهاب دليل على انعدام الفقه لتعاليم الإسلام السمحة، حيث إن الإسلام دين سمح، كما أنه دين الذوق والمروءة، والنجدة والتعاون، والرحمة، والعدالة، وكرم الضيافة، وحسن الخلق، وإتباع السيئة بالحسنة، والتسامح، كما أنه دين الحضارة الإسلامية العريقة، والتي حمل ألويتها المسلمون الأُول.

فلقد وصف الله سيدنا محمداً قائد الإسلام والمسلمين بالخُلُق، قال - تعالى -: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم:٤]، وفي مجال الأخلاق الفاضلة الكريمة بيّن الله - عزَّ وجلّ - أن هذه الخُلّة، وتلك الخصلة لا تسمو فوقها خصلة أخلى من الخصال، فإن ابنى آدم: "قابيل ، وهابيل" حينما قرّبا قرباناً لله - عزَّ وجلّ - ﴿...فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة المائدة:من ٢٧]إلماحة ولفتة وتوجيه وإرشاد إلى أن السبيل المؤدّى لقبول الطاعات إنما هو التقوى، فهدده أخوه بالقتل دونما ذنب جناه، أو إثم اقترفه، أو جرم اجترحه، "قال لأقتلنك"، ثم طوعت له نفسه قتل أخيه

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة .
(٢) حديث صحيح: رواه الطبرانى عن عابس الغفارى، ورواه أحمد فى مسنده، وذكره الألبانى رقم (٩٧٩).

فقتله، وكان جوابه لأخيه على ذلك التهديد الصارخ، والظاهرة الإرهابية الماكرة، الخداعة ما حكاه القرآن الكريم على لسان أخيه رداً على تهديده له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ ...﴾، لماذا؟ ﴿...إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾[سورة المائدة:٢٨]، ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [سورة المائدة: ٣٠]. وكان ذلك أوّل دم يراق في الأرض، وهو قتل قابيل لهابيل.

وحينما طغى "فرعون" وتجبر، وعاث فساداً في الأرض وتكبر، وأمر الله "موسى" وأخاه بالذهاب إلى "فرعون" كان من المناسب أن يقابل الطغيان بالطغيان، والظلم بالظلم، والبغي بالبغي، والجبروت بالجبروت، ولكنّ الأليق والأفضل أن يواجه ذلك كله بالخلق، وذلك ما حديث حيث صدرت التوجيهات الربانية والأوامر العلوية من الله -عزَّ وجلّ- إلى "موسى وهارون" بقوله -عزَّ وجلّ- : ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [سورة طه:٣٤: ٤٤].

وكانت السيدة الفضلى "عائشة" – رضوان الله عليها – إذا نظرت إلى المرآة لتحسن هندامها تقول: "اللهم كما حسنت خَلْقي فحسّن خُلُقي".

ذلك هو الإسلام الذي يحترم الإنسانية جمعاء، وحرمة الدم، بل إنه يحترم حرمة الحيوان، حيث ينبئنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن امرأة دخلت النار في هرّة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.

ذينكم هو الإسلام الذي لا تشوبه شائبة، والذي يعالن الناس أجمعين، مسلمين وكافرين على السواء بأنهم جميعاً لآدم، قال – صلى الله عليه وسلم –:

"كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجميّ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى".

كما أن الإسلام قضى على الشعوبية، ووأد العصبيات، حيث نسب سلمان الفارسي إلى آل البيت على الرغم من أنه من فارس، فقال – عليه السلام –: "سلمان منا آل البيت".

ويروى أن علياً بن أبي طالب – رضي الله عنه – فخر على "سلمان" يوماً فقال له عليّ: "أنا أقرب منك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –". فشكاه "سلمان" لرسول الله – عليه السلام – فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – صاحب الذوق الرفيع، والأدب الجم العالي، مطيباً خاطره، ومهدئاً من روعه، ومؤنساً لنفسه: "أما أنت يا عليّ فقريب قرابة، وأمّا أنت يا سلمان فقريب قُرْبة"، والقرابة دم ولحم، والقربة جسد وروح، وبذلك خفف عنه ما وجده من آلام، وعرّفه أن الإسلام يضرب بيد من حديث على النزعات والعرقية المبنية على أساس الجنس، أو اللون، أو غير ذلك مما يكون سبباً في الفرقة والجفاء.

ويقول – صلى الله عليه وسلم – : "ليس منّا من قاتل على عصبية، ليس منّا من دعا إلى عصبية، ليس منّا من مات على عصبية".

من هذا المنظور الإسلامي نستطيع القول بأن الإسلام برئ من الإرهاب، تلك الظاهرة الغريبة على جسم الأمة الإسلامية براءة الذئب من دم "ابن يعقوب"، وأن الذين يحملون لواء الإرهاب ويرفعون رايته هم أناس دخلاء على الإسلام، ولا يفقهون شيئاً من تعاليمه السمحة، إنما هم أناس يتعلمون يوم السبت ويتخرجون يوم الأحد، ويتصدرون الفتوى يوم الاثنين، ويكفرون الناس يوم الثلاثاء، فبضاعتهم

قليلة بل مزجاة، وفقههم للدين ضحل، فلا يوجد دين فضلاً عن الإسلام صاحب الخلق الكريم يبيح الدماء، أو يستحل القتل.

وما حدث في مصر العربية الإسلامية من قتل ونهب من بعض الشباب في الحكم البائد "حسنى مبارك" لا يعد تعبيراً عن الخط الإسلامي، أو المنهج الديني، إنما هم شرذمة قليلة، وفئة ضالة لا تفقه شيئاً في الإسلام، ولا تمثل إلا أفكارها البالية، ومعتقداتها الخاطئة، والإسلام من ذلك براء كما أومأنا إلى ذلك آنفاً.

من تلك الحوادث الإرهابية حادثة الأقصر في صعيد مصر الطيب صاحب الشهامة، والنجدة، والمروءة، والرجولة، والكرم، كما أنه صاحب الحضارة العريقة، والتي تفاخر مصر بها غيرها من جميع دول العالم، وصدق أمير القوافي حين قال:

أصل الحضارة في صعيدك ثابت ونباتُها حَسَنٌ عليك مخلّـق (١)

فالصعيد صاحب الحضارة، والأقصر هي عاصمة مصر قبل القاهرة في الزمن الغابر، وكانت تسمى "طيبة"، وهى المسماة الآن "بالأقصر"، ويقول العلماء: إن ما بها من آثار يبلغ "ثلث آثار العالم"، ولمعرفة السائحين من جميع دول العالم بما لمصر من مكانة رائقة، وحضارة عريقة؛ لذلك يفدون إليها من شتى البقاع، ومختلف الأصقاع.

والسياحة في الإسلام أمر مهم، فهو ترويح عن النفس، قال - صلى الله عليه وسلم - : "روّحوا عن النفوس ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلّت عميت"، وإن القرآن الكريم كتاب الله وبيانه، ووحيه وتنزيله وبيانه، وهداه وسبيله، به قصم الله ظهر كل شيطان مريد، وأذلّ به كل جبار عنيد، وإن القرآن الكريم هو أول كتاب سماوي لفت أنظار الإنسانية جمعاء إلى قانون يسمى "قانون السير والنظر"، قال -

---

(١) الديوان ٦٥/١ . مخلق : متطيب .

تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة الروم:٩]

ويقول - سبحانه وتعالى -: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة غافر:٢١]

فزيارة الآثار تُرِى الناس أن الذين كانوا من قبلنا كانوا أشد قوة، وأقوى تفكيراً، وعمروا الأرض بهذا الفن العظيم، فن الآثار، والنحت، والتصوير، وهى جميعاً من الألوان الجمالية المحببة إلى النفس البشرية، بَيْد أننا ننظر إلى هذه الفنون بوصفها فنوناً لأمم أخرى يجب أن نتعامل بها من باب العبرة والعظة والحضارة والتقدم، وأن نأخذ منها الحكمة حيث إن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها.

ويقول - عزَّ وجلّ -: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة محمد:١٠]. فهذا قلّ من كثر، وقطرة من بحر مما ورد في كتاب الله والسنة النبوية المطهرة.

والسائحون الأجانب إنما وفدوا إلى مصر قاهرة المعز لدين الله الفاطمي للسياحة، والنظر في آثار الغابرين، فواجب علينا تأمينهم وحمايتهم؛ لنريهم الوجه الحضاري في أسمى صوره، وهم ضيوف علينا، فواجب إكرامهم لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"، كما أنه واجب علينا جوارهم؛ لقول الله -عزَّ وجلّ- ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة التوبة:٦]

وحينما قفل النبي - صلى الله عليه وسلم - آيباً من الطائف، كسير القلب، مفطور الفؤاد، وتأكد أن أخبار ثقيف قد سبقته إلى قريش، رأى الرسول - عليه السلام - ألا يدخل مكة حتى يستوثق لنفسه ودعوته، فبعث إلى "المطعم بن عدى" يعرض عليه أن يجيره حتى يبلغ رسالة ربه، فقبل "المطعم بن عدى"، واستنهض أبناءه، فحملوا أسلحتهم، ووقفوا عند أركان البيت الحرام، وتسنم "المطعم" ناقته ثم نادي: يا معشر قريش ، قد أجرت محمداً - صلى الله عليه وسلم- فلا يهجه أحد منكم". فلما انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الكعبة صلّى ركعتين، ثم انصرف إلى بيته، و"مطعم" وأهله يحرسونه بأسلحتهم(١).

وقيل : إن "أبا جهل" سأل "مطعماً": أمجير أم متابع - يعنى مسلم - قال "مطعم": بل مجير. فقال له : قد أجرنا من أجرت(٢). وكان "المطعم" على دين أجداده، وحفظ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "للمطعم" هذا الصنيع، صنيع المروءة والنجدة، فقال يوم أسرى بدر:"لو كان "المطعم" حيّاً لتركت له هؤلاء النَّتنى"(٣).

نقتبس من هذه الأضواء النبوية وموقف "المطعم بن عدى" وأبنائه، ودخول النبي - صلى الله عليه وسلم - في جواره وجوار أولاده أنه من الواجب علينا تأمين السائحين حتى يؤوبوا إلى بلادهم آمنين شاكرين لمصر الحضارة، ولمصر الإسلام، ولمصر الأزهر الشريف، ولمصر المآذن، ولمصر المروءة والنجدة، والأخلاق العالية.

---

(١) ذكره ابن جرير ٨٢/٢ ، ٨٣ .
(٢) فقه السيرة : للغزالى - دار الريان للتراث ص١٣٥ - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
(٣) ذاته .

أما الذين يرون في الآثار أنها أصنام، فهؤلاء ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم؛ حيث إننا لم نقم بصنع هذه التماثيل لأنها مخالفة للشريعة الإسلامية، لكننا نفيد منها أن الله قد أهلك من صنعها، ودمر من قام بها وأنشأها مع ما تدل عليه من قوة من صنعوها، وجبروت من نحتوها، ونظرتنا إليها نظرة إسلامية، إلا وهى نظرة "العظة والعبرة"، حيث إنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا خلق الروح فيها، فيزداد إيماننا بالخالق - سبحانه وتعالى - حيث إنه صوّرنا فأحسن صورنا، ويجعلنا نهتف بقوله - تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [سورة الانفطار ٦ :٨]، كما أن واجب الشعب أن ينهض لمساندة الأمن، ومقاومة هؤلاء الدخلاء المنحرفين عن الصراط السوي المستقيم؛ حتى نعيش في بلادنا آمنين مطمئنين، مستقرين اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، ويومذاك نستطيع القول للسائحين وغيرهم: ﴿...ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ [سورة يوسف : من الآية ٩٩] ، وقد قال بعض المفسرين: إن المراد هنا "بمصر" هي مصر المحروسة [١]، وهى بإذن الله مصانة محروسة.

وقد أنبأنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن من علامات الساعة الصغرى الاستخفاف بالدم، وهو ما نراه واقعاً ملموساً في هذا العصر، ويتكرر في حياتنا اليومية، قال - صلى الله عليه وسلم - : "بادروا بالأعمال ستاً: إمارة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافاً بالدم، وقطيعة الرحم، ونشواً يتخذون القرآن مزامير يقدمون أحدهم ليغنّيهم وإن كان أقلهم فقهاً".

---

(١) مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهانى.

فإراقة الدماء حرام شرعاً،إلا إذا كانت بحق أو قصاصاً، قال الله - تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٧٩]، يقول علماء البلاغة: "إن التنكير هنا يفيد التعظيم"، أي : ولكم في القصاص حياة عظيمة يا أصحاب العقول السليمة الواعية. وقالت العرب: "القتل أنفى للقتل"، وبون شاسع، وفرق بعيد بين الآية القرآنية الكريمة والعبارة العربية فليس كل قتل أنفى للقتل، بيد أن القصاص أنفى للقتل، والعبارة العربية فيها تكرار، بخلاف الآية الكريمة، حيث لا تكرار فيها.

ويقول الدكتور/ "عبد الجواد الطيب" في تفسير قوله - تعالى - : "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" : "هذا بيان لأهمية القصاص وأثره البالغ في حياة الفرد والمجتمع، وقد تناولته الآية على وجه من البلاغة، لا يُبلغ شأوه، فجعلت الشئ محلاً لضده حين جعلت من القصاص حياة؛ لأنه تنظيم للقَوَد، فلم يعد يُقتل الجماعة بالفرد، عصمة من الثأر الذي يسبب الفوضى، ويهدر الأمن، ويتعرض فيه للقتل غير القاتل نفسه، ثم إنه حياة فعلاً لأنه إذا هَمّ إنسان بالقتل حسب حساباً للقود فيحجم عنه، فيسلم هو ويسلم صاحبه، وإذا فعل فالقصاص يجعله عبرة لغيره"(١).

وقد اهتم رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - بحرمة الدماء، يتجلى ذلك في خطبته - عليه السلام - في "حجة الوداع" حيث قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد أن حمد الله وأثنى عليه : "أيها الناس ، اسمعوا قولي، فإني لا أدرى لَعَلِّى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا،

(١) الإعراب الكامل لآيات القرآن الكريم: للدكتور/ عبد الجواد الطيب ٩٣/٢ - مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماهير.

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رباً موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، فضي الله أنه لا ربا، وإن ربا "عباس بن عبد المطلب" موضوع كُلّه، وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم "ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب"، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتله "هذيل"، فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية"(١).

ويعنينا هنا هذه الجملة من خطبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي : "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام"، وهي جملة اسمية مؤكدة بإن، وخبرها جملة اسمية قدم فيها الخبر "شبه الجملة" على المبتدأ "عليكم حرام"، وفي رواية البخاري: "... فإن دماءكم وأموالكم" قال محمد راوي الحديث: وأحسبه قال: "وأعراضكم عليكم حرام"(٢).

وفي رواية "الواقدي" - وهي تنتهي إلى "عمرو بن يثربي"، وعبد الله بن عباس" - جاء الخبر جملة فعلية فعلها ماض مسبوق بـ "قد": "إن الله قد حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم"، ففيها تأكيد مضاعف، وداعي التوكيد هنا الرغبة في توثيق هذا الأمر في النفوس، وتثبيته في القلوب في هذا اللقاء الجامع، الذي لا يتكرر مرة أخرى، ومن المعروف أنه في المدة التي تلت فتح "مكة" وغزوة "حنين" قد دخلت الوفود في دين الله أفواجاً، وكثير ممن كان في صحبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم حجة الوداع لم يكن قد انفصم عن ماضيه الذي كانت تستباح فيه

---

(١) سيرة ابن هشام ١٨٥/٤ وما بعدها - مكتبة الكليات الأزهرية - تعليق: طه سعد - ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
(٢) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٢١٢/١٦.

الـدماء والأمـوال والأعـراض، علـى الأقـل بالنسـبة للقبائـل المعاديـة، فكـان لا بدّ من هذا التأكيد.

ونلاحظ هنا أن الدماء والأموال - والأعراض في الروايات الأخرى -جاءت بصيغة الجمع المضاف إلى ضمير الجماعة، وهذا يعنى أن دم الفرد وماله وعرضه هو دم الجماعة ومالها وعرضها، وهى مسئولة عن صيانته والحفاظ عليه، والدفاع عنه، والقتال دونه، ويعنى أيضاً أن كل فرد مسئول في حدود قدراته عن دم غيره وماله وعرضه، وبهذا تتحقق مسئولية الجماعة عن الفرد، ومسئولية الفرد عن الجماعة بصورة لا نظير لها في أي مجتمع آخر.

وهذا حديث شرحه يطول، نكتفي منه بهذه اللمحة، ونضيف إليه الحديث الذي رواه "النعمان بن بشير" عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهَموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"(١).

أما الترتيب فإن الدماء قدمت على الأموال في كل الروايات التي راجعتها، وفى رواية الواقدى تلا الدماء والأموال ذكر الأعراض، والسبب في ذلك فيما نعتقد: أن دم الإنسان مقدَّم على ماله، وأنه أغلى منه وأثمن، وأن العقوبة على سافك دم غيره أفظع من العقوبة على آخذ مال غيره، فالتقديم مبنى هنا على الأهمية.

---

(١) رواه البخاري وأحمد والترمذي واللفظ للبخاري.
وأيضا قطوف من ثمار الأدب الإسلامي – تأليف: الدكتور/ على أحمد الخطيب.

ولكن هل يقل العِرض في أهميته عن المال حتى يؤخر عنه؟

وللإجابة على هذا السؤال ينبغي أن ننظر في جرائم الأعراض والأموال، فما الذي نراه؟ إنك تلاحظ أن جرائم الأموال في العادة أكثر من جرائم الأعراض، ونرى كذلك أن مواطن الشبه في الأموال التي يجب أن تُتقى أكثر من مواطن الشبه في الأعراض، فالحلال والحرام في الأعراض واضحان وضوحاً بيّناً بلا أدنى شبهة، وليس كذلك الأموال؛ لتشابك المعاملات بين الناس وتداخلها، فالاقتراب من الحرام والخوض فيه أكثر في الأموال منه في الأعراض؛ من أجل ذلك فيما تبين لنا قدم هنا الأموال على الأعراض وإن كان قد ساوى بين الثلاثة في حرمتها هذه الحرمة المغلظة.

ويأتي هنا قوله: "عليكم حرام" باستخدام "على" التي تفيد الاستعلاء، وفي رواية "الواقدي" أسند التحريم إلى الله مباشرة "إن الله قد حرّم"، والمعنى في الروايتين: إن التحريم آت من أعلى، وكل رواية تفيد هذا المعنى بصيغتها الخاصة بها، ولكنه يبقى فيهما شاخصاً ماثلاً، وهذا من شأنه أن يمكن المعنى في النفوس، ويدفعها إلى الاستجابة والتنفيذ.

ثم ما معنى إن الدماء والأموال والأعراض حرام؟ حتى يتبين المعنى ويتضح لا بد من تقدير محذوف، فالأسلوب من قبيل الإيجاز بالحذف؛ لأنه من المعروف أن الذوات لا يتعلق بها تحريم ولا تحليل، وهذا ما سوّغ هذا الإيجاز، فالذي يسمع أن الله حرّم الدماء لا ينصرف ذهنه إلى تحريم ذات الدماء، وإنما ينصرف هنا بحسب المقام إلى تحريم سفكها وانتهاكها، والاعتداء عليها مثلاً، وليس كذلك تحريم الدم في قوله -تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ...﴾ [سورة

المائدة:٣][1] ؛لأن المعنى حينئذ كما يقتضيه المقام : حرم عليكم أكل الدم أو شربه أو تناوله مثلاً، أو الانتفاع به، فالمقام هو الذي يحدد المحذوف المقدر، ولكن الذهب في كل الأحوال لا يمكن أن يتخلى عن التقدير.

أما تحريم الأموال فإنه يقتضي أن يحرّم أكلها بين الناس بالباطل، مصداقاً لقوله -تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ... ﴾ [سورة النساء:٢٩].

وحرصاً وصيانة للدماء من الإهدار نرى القرآن الكريم يحافظ على هذا المعنى، ويحذّر من الاعتداء على حرمة الدم، فيقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [سورة المائدة:٤٥] .

من هذا كله يستبين لنا بجلاء ووضوح تامين أن الإسلام يرعى حرمة الدماء، وحقوق الإنسان قبل أن تعرفها النظم الدولية الحديثة، وصدق الله - عزَّ وجلّ - حين قال: ﴿ ... وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [سورة النحل:٨٩] .

كلمة أخيرة: واجب على الدعاة وعلى كل مسلم توعية الشباب المسلم؛ حتى يعصمه من الانزلاق في مهاوي الانحراف والزلل، وذلك بالإرشاد والتوجيه، والدعوة إلى الله من منظور قول الله - عزَّ وجلّ - : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [سورة النحل:١٢٥]، والنأي عن طريق العنف حتى لا تشوه

---

(١) وينظر: من أسرار البيان النبوي: تأليف: الدكتور/ أحمد محمد علي – دار الصحوة ص٨١.

صورة الإسلام، وليظل الإسلام شامخاً بقيمه ومبادئه القويمة، ومنهاجه الواضح، وخلقه الكريم:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[سورة يوسف:١٠٨]

وقوله-سبحانه وتعالى-:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

[سورة النحل:١٢٥] .